Teosofia: Indonesian Journal of Islamic Mysticism, Volume 5, Number 1, 2016
DOI: http://dx.doi.org/10.21580/tos.v5i1.1727

محمد عبده واتجاهه الأدبي في التفسير

M. Sihabuddin
UIN Walisongo Semarang
sihabudin@walisongo.ac.id

Abstract
This research strengthens the findings of the previous research which stated that Muhammad Abduh used literary paradigm in his Tafsir. Abduh, although he was known as a man of letters but there is a statement that it does not mean that Abduh's Tafsir entirely stands on the methods and literary paradigm. Due to this reason the study is purposed. The findings of this research show that Abduh's interpretation toward the Qur'an is not much different than what is done by the contemporary interpreters such as Amin Al-Khulli. The literary approach used by Abduh in interpreting the Qur'an it could be reviewed from linguistic description given upon words in the Qur'anic verses and the aspect of the history of the development of the meaning of those words. In addition, Abduh's literary approach is also identical to rationalism tradition in the world of the Qur'anic exegesis scholarship. This caused Abduh to be accused as of the leftist Mu'tazilah. However, by using the inter-textual method, this research concludes that the allegation is not true.

Keywords: Muhammad Abduh, al-tafsir, ai-ittijah al-adabi

أ. التمهيد

لقد حاول محمد عبده إلى أن يجعل تفسير القرآن هداية للحياة الإنسانية والمعالجة فيما واقع في العالم الإسلامي العصري من جمود وشلل يسبّبان الركود والانحطات. هذا بجانب إلى أن له رغبةً فائقة في ايجابته للتحدّيات التى تتولد منها القضايا السياسية والاجتماعية الأوربية الغربية. ومن ثم، فلا شك لو أنه لا يشتغل بكشف معانى النصوص القرآنية استجابةً للفكر الإسلامي الناهض، وحثّه على مداومة النهوض فحسب، بل كانت عنايته بالقضية كيف يساير تفسير القرآن الكريم مع مظاهر العلوم التى يتولد منها أوربا، حتى يكون مسايرة مع روح العصر الحاضري.[1]

إن مبدأ غرض تفسير محمد عبده الأساسي لايخلو من الخلوص عن أثره الذاتي لما فيه من الاقحام في عملية تفسير معانى النصوص القرآنية، كما وقع في العصر الحاضر بظهور اتجاه التفسير العلمي لطنطاوي الجوهري. وقد انتقده أمين الخولي, وهو زعيم اتجاه التفسيرالأدبي في العصر الحديث.

[1] Khoiru an-Nahdiyyin, *Metode Tafsir Sastra*, (Yogyakarta: Adab Press, 2004), 124-125.

ولعل ما يمتاز تفسير محمد عبده عن غيره أنه مهما كان يتوسع في تفسيره ويحرص على "كشف المعانى" في تفسيره فإنه لا يتجاوز عن حدّ النص نفسه. وقد ذكر بعض المثقفين الإسلاميين، نحو ناصر حامد أبو زيد، نور خالص ستياوان، وغيرهما أن الغرض الأول في تفسير محمد عبده وهو الاهتداء بالقرآن لا يخلو من المنهج اللغوي الفني. وذلك لأنه لايمكن أن يصل إلى هذا الغرض إلاّ به.[٢] وأكده نور خالص ستياوان بأنه -على الرغم من أنه مهما انطلق إلى الهداية كالغرض الأول في تفسيره - فإنه لايتجاوز عن المنهج اللغوي الفني. ويعرف ذلك بما صرح به في تفسيره من مداومة العثور على أصل معنى الكلمة اللغوي من وقت نزول القرآن إلى وقت ما فسر معانى مفردات القرآن.[٣] بل صرّح نور خالص بأن نشأة المنهج الأدبي في التفسير العصري قد بدأ بذوره على يده.[٤] ومثال ذلك ما ذهب اليه باحثوا الدراسات القرآنية العصرية في مصر، محمد حسين الذهبي، عفت الشرقوي ومحمد إبراهيم شريف.

ومما لا شك فيه أن خلفية محمد عبده الثقافية في اللغة والأدب حينما كان أول من علّم تلاميد الأزهر الشريف علمَ البلاغة من كتابي عبد القاهر الجرزاني: "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز"، لها أثر قوي في اتجاهه الأدبي في التفسير. وكذا عنايته بشرح نهج البلاغة للسيد علي كرم الله وجهه تؤيد مظاهر ثقافية محمد عبده في اللغة والأدب. وبهذا، فلا يخفي على علماء الأزهر لو أن محمد عبده مشهور بزعيم اللغة والأدب العصري في الأزهر الشريف. وهو الزعيم الذي برز في عصر الانحطاط والتأخر.[٥]

وعلى الرغم من ذلك كله، قلّ ما بحث الباحثون عن محمد عبده واتجاهه الأدبي في التفسير، بل كثيراما بحث الباحثون عن اتجاهه العقلي والاجتماعي والسياسي. وهذا معقول، إذ ظلّت هذه الاتجاهات في تفسيره من أبرز أفكاره عندهم.

ب. محمد عبده وثقافته الأدبية.

إن أدبية محمد عبده قال محمد مصطفى المراغي يتحدث عن دروس أستاذه محمد عبده : "وكانت دروس الشيخ كالغيث وأما البلد الطيب فقد خرج نباته بإذن ربه، وأما البلد الخبيث فقد خرج نبته نكدا، وكانت دروسه مثلا عليا في طريقة الإلقاء والتفهيم، وفي العبارات الفصيحة المتخيرة الناقدة إلى القلوب وكانت دائرة معارف يجد اللغوي فيها حاجته، والفقيه رغبته والمتكلم بغيته، ويجد العلماء الاجتماع فيها تطبيق آي القرآن على معارفهم، وكانت صرخاته المدوية منبهة للغافل ومحركة اللجامد،

[2] Khoirun An-Nahdiyyin, *Metode Kajian...*, 127.

[٣] رشيد رضا، تفسير القرآن...، جـ١، ص. ٢٣-٢٤

[4] M. Nurkholis Setiawan, *Al-Qur'an Kitab Sastra Terbesar,* (Yogyakarta: eLSAQ Press, 2005), 29.

[٥] محمد الكامل الفقي، ***الأزهر وأثره في النهضة الأدبية العصرية*** (القاهرة: جامعة الأزهر الشريف, ١٩٨٢)، جـII، ص: ١٢١

وكانت عاصفة قوية هزت الأشجار الباسقة القوية فسقطت أوراقها الذابلة ثم أورقت، أما الشجيرات الضعيفة والحشائش الدنئية فأفلتت منها ولم تنتفع بها"[٦]

وإذا كانت هذه الدروس القرآنية دائرة معارف تلبي حاجة اللغوي والفقيه ورجل الاجتماع وكل ذي إربة علمية، فإن التعرض لها بالتحليل في غير مجالنا البياني يستطيع أن يعدد ثمار أغصانها المتنوعةن اما نحن فسنحدث عن أثرها الأدبي وحده في حقل البيان العربي باطلاقيه العام والخاص، لنرى كيف أذن الله للتفسير البياني أن تتلألأ أشعته في هذا العصر أول ما تلألأ من شمس الأستاذ فتقدم هذا المنحى لونا أدبيا ممتازا يعيد السامعين إلى عهود البلاعة العريقة في أزهر عصورها. وكتاب الله المبين لا يكشف عن حقائقه سافرة باهرة إلا بلسان أديب دقيق النظرة قوى التأثير نافد الشعاع! وتلك من سمات محمد عبده.

لقد درس محمد عبده الفلسفة والمنطق على يد جمال الدين في لقائهما الأول بمصر مع الصفوة المختارة من تلاميذ هذا المصلح العظيم. فشب التلميذ قوى العقل صحيح النظر. وكان له فطرة أدبية مطبوعة تميل به الى رصانة التعبير ومتانة التركيب فكان أسلوبه الادبي بعد أن تحظى مرحلة التقليد طليعة مدرسة أدبية تاثرت به في وضوح الرأي ونفاذ الحجة والبعد عن ركا كات معاصرية. فإذا يلقي درسه الديني لدى سامعيه نمطا جديدا غير النمط المتعارف عليه لديهم من القائلين. وكانت قوته العقلية ونظرته الأدبية تدفعانه معا إلى آراء حية في الاسلوب البياني للقرآن تلمس فيها روحه القوي تدفقا وتضلعا وإقناعا، حتى فيما سبق إليه من الآراء إذن من طبيعة صاحب هذا الاتجاه أن يخلع من ذاتيته على ما يقرر ويحقق من هذه الآراء! فتبدو لدى المفكر الاصيل جديدة طريقة بمعرضها الزاهي وتفكيرها السديد!

إن منزلة محمد عبده في النثر العربي المعاصر تقوم بمنزلة البارودي في الشعر المعاصر، فكلا الزعيمين كان رائد بعث أدبي حي، يتجه إلى تخلص الأسلوب من الركاكة والتكلف والإغراق في المحسنات، ولكن بواكير الشعر لدى البارودي التى تحمل دلائل التقليد والمحاكاة لما تعور في عصره قد أهملها صاحبها فلم يحتفل بها لتبقى مع قصائده الجيدة في ديوانه، فجاء نمطا واحدا في الديباجة المشرقة الخالصة من أوهاق المحسنات، أما محمد عبده فقد حرص رشيد رضا على أن يجمع كل ما تقع يداه عليه مما قال، ومنه بواكيره الناشئة التى كتبها بأسلوب بديعي متكلف لم يستطع اليافع الناشىء حينئذ النجاة منه، فلما استوى عوده الفني التزم مذهب الترسل الرصين، وصار به إماما في دنيا النثر العربي بحيث

[٦] رجب البيومي، ***خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم***، (الأزهر: مجمع البحث الإسلامية، ١٩٧١)، ص. ٢٨٧

امتد أثره إلى أناس لم يردوا مورد الثقافة الدينية في الأزهر، من أمثال قاسم أمين ولطفي السيد وأحمد فتحى زغلول ممن حاكوا محمد عبده عن الاقتناع.

وذكر رجب البيومي أن أسلوب محمد عبده في تفسير القرآن كان أحد عناصر التجديد الأدبي المعاصر، إذ ما كاد يظهر في وضوحه وتدفقه وبعده عن طريقة الحواشي والتقريرات، حتى احتذاه كل معالج للمسائل الدينية من تفسير وإرشاد وإصلاح اجتماعي يستند إلى مقررات الشرع. بحيث أصبح كل كاتب ديني ينحو نحوه محاولا جهده أن يتعلق به، وبحيث كان تلاميذ محمد عبده لايقتصرون عمن سعدوا بلقائه بل يمتدون إلى قارئى آثاره ممن أتوا بعده. فإذا رأينا نفخات عبقة لدى عبد العزيز الجاويس ومحمد الحضري، وعبد الوهب النجار، ومحمد رشيد رضا، ومحمد مصطى المراغي وإبراهيم الجبالي ومصطفى عبد الرازق وعبد الوهب الخلاف والمغربي ومحمود شلتوت فهي من روضة محمد عبده.[٧]

كان محمد عبده قد التزم الإشراق الآخذ في لفظه، والترتيب المنسق في تفكيره والتحديد المحقق في معانيه عناصر واضحة الطابع في تفسيره البياني، وإذا لم يعد الشرح البلاغي لديه ولدى أتباعه الكثيرين يدور في أكثر مناحيه حول تحديد التشبيه والاستعارة الكناية في دائرة البيان أو يتقيد في أكثر أموره بمصطلحات الفصل والوصل والخبر والإنشاء في دائرة المعانى فأصبح هذا الشرح البلاغي يمس ذلك وأكثر من ذلك في دائرة الأسلوب الأدبي الواضح بأسراره السافرة بحيث تطالعك روح البلاغة وجوهرها مطالعة تشبيعك وترضيك، وجاء تلاميذه يتمسكون بمنهجه، وارتضوا طريقته فوصلوا إلى عقول السامعين والقارئين. وأصبح لدينا من التفسير البياني المعاصر آثار رائعة تستأهل الدراسة، لأن كل مصلح يستند إلى آيات القرآن ولن تكون الآيات صريحة الدلالة إلا إذا فسرت واتضح بها الدليل، وكل آية تحمل من أفانين البيان البلاغي ما تمتلىء به العقول القلوب. ومن هنا، كثرت لدينا الذخيرة البيانية في التفسير المحتذى طريقة محمد عبده.[٨]

ويمكننا ان نسفيد من بيان شخصية محمد عبده وأدبيته أن ما عنده من القوة الأدبية يجعله رائداً وزعيما في الوضع الأساسي للتفسير الممتاز في العصرالحاضر, وأنّه يتلوّن باللون الأدبي الاجتماعي. لاجل معالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم أوّلا وقبل كل شيء على إظهار مواضع الدقة في التعبير القرآني, ثم بعد ذلك تصاغ المعانى التى يهدف القرآن اليها في أسلوب سيق أخاذ, ثم يطبق النص القرآني على ما في الكون من السنن الإجتماعية[٩].

---

[٧] رجب البيومي، *خطوات التفسير...*، ص. ٢٩٦-٢٩٧

[٨] رجب البيومي، *خطوات التفسير...*، ص. ٢٩٧-٢٩٨

[٩] د. محمّد حسين الذهبي, *التفسير...*, ج: ٢, ص: ٥٤٧

ج. محمد عبده وخطواته الأدبية في التفسير

إن الهداية للناس التى هي المقصد الأول في تفسير محمد عبده لا يخلو عن المنهج اللغوي والأدبي وهو المنهج الذي يتوصل به إلى الفهم الصحيح بالقرآن الكريم. فلا يخفى إذاً لو كان محمد عبده في مقدمة تفسيره اتخذ الخطوات التفسيرية الأساسية إجلالا لتحقيق هذا المنهج. فالخطوة الأولى: فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها الله بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان كثيرا من الألفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد من ذلك لفظ التنزيل، فاشتهر بمعنى التفسير مطلقا أو على وجه مخصوص، ولكنه جاء في القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى : " هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق"[١٠] فما هذا التأويل؟ فصرح بأنه يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التى حدثت في الملة ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب، فكثيراً ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التى حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى. فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة في عصر نزوله. والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ "الهداية"، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية؟ فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه. واستدل بقول بعض العلماء: إن القرآن يفسر بعضه ببعض، ويبّن أن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ: موافقته لما سبق له من القول واتفاقه مع جملة المعنى واتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته.[١١] فبان للباحث أن محمد عبده بهذه الخطوة انكر الاقحام في التفسير المعنى الأصل القديم بالمعنى الحديث بسبب عدم العناية بمعنى اللفظ المستعمل في التزيل، كما وجدنا في كتب التفاسير الحديثة المتداولة بين أيدى المؤمنين، ولعل من أبرز مظاهر هذه التفاسير التفسير العلمي.

الخطوة الثانية؛ الأساليب، لابد للمفسر من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة ويحصل ذلك بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفطن لنكته ومحاسنه، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه وذلك لأننا لا نتسامى منه فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام ولكن يمكننا فهم ما نهتدي به بقدر الطاقة. فنحتاج إلى علم الإعراب وعلم الأساليب- المعانى والبيان.[١٢]

---

[١٠] سورة الأعراف: ٥٣

[١١] رشيد رضا، *تفسيرالقرآن...*، (بالتصرف)، ج:١، ص :٢٣

[١٢] شيد رضا، *تفسيرالقرآن...*، (بالتصرف)، ج:١، ص :٢٣-٢٤

الخطوة الثالثة؛ علم أحوال البشر، وذلك لأن من اراد أن يبحث الكتاب لا بد له من العناية بأحوال البشر من نشأتها وتطورها ومنشأ اختلاف أحوالهم، من قوة وضعف وعز وذل وعلم وجهل وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير من علوية وسفلية. ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه. بناء على هذا، قال محمد عبده : أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى: (كان الناس أمة واحدة. فبعث الله النبين مبسرين ومنذرين) {البقرة: ٢١٣} وهو لا يعرف أحوال البشر، وكيف اتحدوا، وكيف تفرقوا؟ وما معنى تلك الوحدة التى كانوا عليها؟ وهل كانت نافعة أم ضارة؟ وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم.

الخطوة الرابع؛ العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن. فيجب على المفسر القائم بهذا فرضا كفائيا: أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم، لأن القرآن ينادى بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث به لهدايتهم وإسعادهم. وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو مايقرب منها إذا لم يكن عارفا بأحوالهم وما كانوا عليه؟ هل يكتفى من علماء القرآن دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد، بأن يقولوا تقليدا لغيرهم. إن الناس كانوا على باطل، وأن القرآن دحض أباطيلهم في الجملة؟ كلا! وبهذا قال رشيد رضا إن من نشأ في الإسلام ولم يعرف حال الناس قبله يجهل تأثير هدايته وعناية الله يجعله مغيراً لأحوال البشر ومخرجا لهم من الظلمات إلى النور. ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادي. والخامس؛ العلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها.[١٣]

إذا أمعنا النظر إلى الخطوات التفسيرية لمحمد عبده وجدنا أن لها علاقة وثيقة بالأساسيين، الأول؛ اللغة في سياق التاريخ، لأن اللغة تستعمل في عصر التنزيل. والثانى؛ العالم، لأن اللغة لها وظيفة في تحقيق الحكم الذي يحرك العالم على شكل طبيعي او اجتماعي في عملية سيرة تاريخية. فالنص عند محمد عبده بخطواته المنهجية هو التركيب اللغوي الذي له المعنى في سياق التاريخي والاجتماعي فلا يخلو في نفس الوقت، من اجاده في اتخاذ المعنى الخارج من السياق التاريخي-الاجتماعي. ولكن المعنى الذي هو خارج السياق التاريخي-الاجتماعي لا يلتزم بالاقحام في ذلك المعنى إلى التركيب اللغوي الذي له المعنى من النص.

ومن هنا، كان محمد عبده يستمد بالأدوات التفسيرية التقليدية (علم المعانى والبيان) لكشف معانى النص، واطلق عليها بـ"علم الأسلوب". فيبدل المصطلاح القديم بالمصطلاح الحديث على الشكل

[١٣] رشيد رضا، *تفسيرالقرآن...*، (بالتصرف) جـ١، ص :٢٣-٢٤

المجازي. وكان هذا البدل نفسه له معنى خاص، فالجديد لا يغير القديم ولا يذهبه، بل يكون كل منهما متناسب في علاقة مقابلة ظاهرة. وقدكانت هذه العلاقة استجابة لمحمد عبده في مظاهر التفسير القرآني.[١٤]

وكانت محاولة محمد عبده في دراسة التفسير الأدبي وتبعها أمين الخولى (١٨٩٥-١٩٦٦) تكميلا لها حتى تكون منهجا أدبيا طبقها تلاميذه، منهم محمد خلاف الله (ت ١٩٩٨)، محمد شكرى عياد (ت ٢٠٠١) وناصر حامد أبو زيد وعائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء (ت ١٩٩٨)، وكانت أبرز تلاميذه في تطبيق المنهج الأدبي، وذلك لأنها التى ألفت الكتاب التفسير الموضوعي "التفسير البياني للقرآن الكريم" على المنهج الأدبي. هذا بجانب إلى أنها زوجة أمين الخولى.

د. تفسير محمد عبده في معانى مفردات القرآن

بداء الباحث في بيان كيف اتجه محمد عبده تفسيره بالاتجاه الأدبي في التفسير بأن يبين تفسيره في معانى مفردات القرآن كالمبداء الأساسي في اتجاه التفسير الأدبي. وقد تقدم في بيان الخطوة الأولى في تفسيره بأن فهم حقائق الألفاظ القرآنية لايكفيه مجرد الاعتماد على استعمالات أهل اللغة بل لابد من الاعتبار بما استعملت هذه الألفاظ في زمن التنزيل لمعان. وكانت هذه المحاولة لمحمد عبده في العثور على معنى لغوي للكلمة تتميز عما سار عليه أصحاب المنهج الأدبي. فإنهم كانوا يتمسكون على الدوام في استهدافهم في مرحلة درس المفردات والمعجم اللغوي لألفاظ القرآن والعثور على معناها وقت نزول القرآن ليفسرها المفسر الأدبي حينئذ مطمئنا في موضعها من الآية التى جاءت فيها. فالواقع، أن الكلمات لها تاريخ طويل، وتستعمل استعمالات مختلفة، ويجب ألا نخلط استعمالات متأخرة بأخرى متقدمة.[١٥] فبانت للباحث الصعوبة المؤكدة أمام تحقيق المنهج الأدبي للتفسير. وذلك لأنه في الواقع يشكل صورة الاعتراض الجوهري على كل نوع من تفسير يذهب فيه صاحبه إلى أفق فكرى أعلى، فماذا يعنى مدلول الكلمات في وقت نزول القرآن؟ على أننا سلمنا بأن العرب الذين نزل عليهم القرآن الكريم قد فهموا بشكل ما في القرآن الكريم، فإن هذا لا يقتضي أبدا ألا نتجاوز حدود الفهم الذي فهموه، فضلا عن أنه من الصعب حقا أن نعلم إلى أي حد من معنى النص القرآني الذي فهمه الصحابة. وعلى هذا، فقد انتقد ابراهيم شريف أن ما سار عليه أصحاب المنهج الأدبي من طريق التفسير بالكلمات ودلالتها المعجمية فإنه

[14] Khairu an- Nahdiyyin, *Metode Tafsir…,* 32

[١٥] ابراهيم شريف، ***اتجاه التجديد...***، ص: ٥٢٧

مطرب وغير صيحيح، لو صدر المفسر الأدبي في هذا الاعتراض من تصور أن ألفاظ اللغة – أية لغة إنما هي قطع صماء لا تتسع دلالتها إلا لما وضعت له من المعانى الأولى، فوضح بطلان ذلك التصور[١٦].

والأمر ليس كذلك حينما حاول محمد عبده في تفسير معانى مفردات القرآن، فإنه لا يتوقف على السير في طريق التفسير بالكلمات ودلالتها المعجمية كبداية الطريق إلى تفسير النص. بل تكون الفكرة التى يحددها السياق هي البداية الحقيقة لفهم اللفظ. وذلك لأن التفسير عنده لابد من أن تكون فيه العلاقة الوثيقة بين الفكرة العامة واللفظ. ويبرهن على ذلك أن محمد عبده قد اتخذ لنفسه في اجراء غالب نقده لمفسري العصور الوسيطة خاصة الجلالين على قاعدة السياق، فهذه هي التى لعبت دورا خطيرا في تفسيره وصاحبه " فإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ – كما قال محمد عبده- موافقته لما سبق له من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، واتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب جملة.[١٧] ففي تفسير قوله تعالى: وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى[١٨] قال: "ولا معنى لوصف الغمام (هنا) بالرقيق كما قال المفسر الجلال وغيره، بل السياق يقتضى كثافته، إذ لايحصل الظل الظليل الذي يفيده حرف التظليل إلا بسحاب كثيف يمنع حرار الشمس ووهجها".[١٩] وفي تفسير قوله تعال : "بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته"[٢٠] قال محمد عبده"للسيئة" أي هنا إطلاقها، وخصها مفسرنا الجلال وبعض المفسرين بالشرك، وقال: "ولو صح هذا لما كان قوله تعالى: (وأحاطت به خطيئته) معنى، فإن الشرك أكبر السيئات، وهو يستحق هذا الوعيد لذاته كيفما كان"[٢١]

وعلاوة على هذا فإنه فسر القرآن اعتمادا على اللغة القرآنية نفسها، فهي مراعاة معانى الألفاظ القرآنية كما كانت في اللغة عند نزول والوحي والاحتراس مما طرأ على معانيها من تطور واستعمالات، ومراعاة القواعد النحوية والبلاغة خاصة قاعدة ألا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية في نفس الكلام، وقال محمد عبده نقدا للجلال في تفسير قوله تعالى:" فيه ظلمات ورعد وبرق":[٢٢] "إن لفظ

---

[١٦] براهيم شريف، *اتجاه التجديد...*، ص:٥٣٦

[١٧] براهيم شريف، *اتجاه التجديد...*، ص:٢٦١

[١٨] سورة البقرة:٥٧

[١٩] رشيد رضا، *تفسير القرآن...*، ج:١، ص :٣٢٣

[٢٠] البقرة: ٨١

[٢١] رشيد رضا، *التفسير المنار...*، ج:١، ص :٢٩٦

[٢٢] وقد صرح محمد عبده في تفسير الاية ١٩ في سورة البقرة تعليقا على الجلال السيوطي حيث إنه قال: إن الرعد ملك أو صوته، والبرق سوطه يسوق به السحاب، بأن الملك عند الجلال يتصور جسما ماديا، وذلك لأن الصوت المسموع بالآذان من خصائص الأجسام، وأن السحاب يتصور حمارا بليدا لا يسير إلا إذا زجر بالصراخ الشديد والضرب المتتابع.

الظلمات هو ظلمة الليل والسحب والصيب نفسه، والرعد هو الصوت المعروف الذي يسمع في السحاب عند اجتماعه احيانا، والبرق الضوء الذي يلمع في السحاب أو الأفق حيث لا سحاب"، ثم صرح بأن هذا ما كان يفهمه العرب من الأ لفاظ، وهو الذي يفهمه الناس اليوم، ولا يجوز صرف الألفاظ عن معانيها الحقيقة إلا بدليل صحيح، ولا سيما إذا صرفت عن معانى من عالم الغيب لا يعلمها إلا الله تعالى ومن أعلمهم الله تعالى إياه بالوحي، ولكن أكثر المفسرين ولعوا بحشو تفاسيرهم بالموضوعات التى نص المحدثون على كذبها، كما ولعوا بحشوها بالقصص والإسرائليات التى تلقفوها من أفواه اليهود وألصقوها بالقرآن لتكون بيانا له وتفسيرا، وجعلوا ذلك ملحقا بالوحي، والحق الذي لا مرية فيه: أنه لا يجوز إلحاق شيء بالوحي غيرما تدل عليه ألفاظه وأساليبه إلا ما ثبت بالوحي عن المعصوم الذي جاء به ثبوتا لا يخالطه الريب.[٢٣]

وإذا أمعنا النظر أن قاعدة السياق فيما سبق على أن كيانها تشكل أساسا رئيسا من أسس الاتجاه الأدبي والمنهج الموضوعي في تفسير القرآن الكريم، وتعد المحور الحقيقي لأحد تيارات الاتجاه الأدبي، ونعنى به تيار البيانية الذي حاولته بنت الشاطىء في "التفسير البياني".لا سيما حينما اكتنف قاعدة السياق وتعلق بها من مفاهيم جزئية تجده هو الآخر واضحا في قواعد محمد عبده التفسيرية – فضلا عن تطبيقاته – المتعلقة بعلوم اللغة وفقهها، وعلوم الأساليب وفروعها، فتطبع اللفظ في القرآن الكريم لكشف معناه الحقيقي مع مراعة قاعدة أن لا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية في نفس الكلام. وعبر محمد عبده عنه بقوله : "والأحسن للمفسر أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه – فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية وغيره- ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه".[٢٤] واصبح هذا الامتياز يترتب على الاختلاف بين تفسير محمد عبده و تفسير اصحاب المنهج الأدبي في موقف كل منهما من بلاغة القرآن من حيث مطابقته لمقتضى الحال والقضية في البحث عن الاعجاز.

هـ. محمد عبده وقضية الإعجاز.

مهما كانت قاعدة السياق التى بنا عليها في تفسير مفردات القرآن تشكل أساسا رئيسا من أسس الاتجاه الأدبي والمنهج الموضوعي ، فإنه اختلف مع اصحاب المنهج الأدبي في قضية الاعجاز، وهذا يترتب على اختلاف في دراسة النص القرآني من حبث العثور عن دلالة الألفاظ ومعانيها، فاعتمد المفسر الأدبي

[٢٣] رشيد رضا، *تفسيرالقرآن...*، جـ ١، ص. ١٤٧

[٢٤] رشيد رضا، *تفسيرالقرآن...*، جـ١، ص :٢٣-٢٤

على أن المتفق عليه هو أن بلاغة أي كلام هي مطابقته لمقتضى حال المخاطبين، وهل يكون القرآن وهو قيمة البلاغة العربية إذا ما إريد لألفاظه دلالات ومعان لم يعرفها المخاطبون به خاصة إذا كانت معانى علمية لم تعرفها الدنيا إلا بعدما جازت آمادا فسيحة وجاهدت جهادا طويلا ارتقى به عقلها وعلمها. وهب هذه المعانى العلمية المدعاة كانت هي المعانى المرادة، فهل فهمها أهل العربية منه إذ ذاك وأدركوها؟ وإن كانت لم تفهم من النص القرآني ولم يدركها أصحاب اللغة الخلص من عبارتها كما هو الواقع فعلا، فكيف تكون معانى القرآن المرادة؟ وكيف تكون تلك الألفاظ مفهمة لها؟ وهل هذه هي المطابقة لمقتضى الحال؟[٢٥]

إن هذا الاعتراض البلاغي الأدبي لا يكاد يضيف جديدا عن سابقيه اللغوي غير المسألة المطابقة، وقد ظن المفسر الأدبي أن هذه الفكرة الاصطلاحية لا يجوز أن يحتكم إليها القرآن إلا من منطق جواز احتكامه إلى مصطلحات العلوم الأخرى، ومنع عن الاحتكام في فهم القرآن إلى مصطلحات العلوم ووسيلتهم في هذا المنع هي الاحتكام إلى مصطلحات العلوم. واحتج المفسر الأدبي بالحجة المكرورة المتهافتة أنه يهاجم ربط النص القرآني أو فهمه في ضوء نظريات لا ترتقي إلى اليقين الثابت من العلم الصحيح. واتخذ التفسير العلمي موضع هجومه بأنه التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارة القرآن ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها. وقال أمين الخولي : "وأما ما اتجهت إليه النوايا الطيبة من جعل الارتباط بين كتاب الدين والحقائق العلمية المختلفة ناحية من نواحى بيان صدقه واعجازه، أو اصطلاحيته للبقاء...فربما كان ضرره أكثر من نفعه. على أنه إن كان لا بد لهم (مفسرو التفسير العلمي) من ذلك فلعله يكفي في هذا ويفي ألا يكون في كتاب الدين نص صريح يصادم حقيقة علمية يكشف البحث أنها من نواميس الكون ونظم وجوده، وحسب كتاب الدين بهذا القدر صلاحية للحياة ومسايرة للعلم وخلاصا من النقد...وخير لأصحاب هذه الرغبات الذين يبينون الصدق والاعجاز أو الصلاحيات لكتاب الدين بهذا النحو من التفسير العلمي – خير لهم أن يقدروا مثل هذا الاعتبار، فلايتكلفون ما يتكلفون من ربط الكتاب بالعلم، فالقرآن غني عن أن يعتز بمثل هذا التكلف الذي يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنساني الاجتماعي في اصلاح الحياة ورياضته نفوس الناس جميعا على اختلاف حظهم من العلوم الطبيعية والرياضية وما إليها، وحسب هؤلاء كما تقدم ألا يكون في القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية دون أن يمكن التوفيق بينه وبينها."[٢٦]

[٢٥] أمين الخولى، ***مناهج التجديد...***، ٢٩٣-٢٩٤

[٢٦] أمين الخولى، ***مناهج التجديد...***، ص: ٢٩٦

وإذا ما تسامحنا في هذه النقطة، فمن حقنا أن نتساءل: إذا كانت المطابقة تعنى ألا يخرج مدلول اللفظ القرآني عما تعارف عليه العرب المخاطبون من معان، فكيف يكون إذن مخاطبا به من بعدهم، ومعجزا لهم أيضا ضرورة أنه كتاب الانسانية والبشرية كلها؟ أليس من الممكن أن يتوجه الله بخطابه إلى العرب وقت نزول القرآن فيكون خطابه مطابقا- بظاهره ونصه أو دلالته الأولى- لمقتضى حالهم وما يعرفون، ويكون بما احتواه باطن خطابه – أو بدلالاته الثانوية – معجزا لمن بعدهم أيضا ضرورة أنهم مخاطبون به مثل سابقيهم، ويكون بذلك محققا لمعادلة صعبة لا يقدر على تحقيقها إلا نص يرجع في مصدره إلى طبيعة غير بشرية، وعلى هذا فالباحث يتفق على ما اعترضه ابراهيم شريف عن رأي صاحب المنهج الأدبي.

وامتاز تفسير محمد عبده عن صاحب المنهج الادبي بتصريحه فكرة التفسير العلمي لا سيما في تطبيقها على الناحيتين التاريخية والعلمية، فمعرفة الكون وسنن الله تعالى فيه عند محمد عبده، مما يعين على فهم القرآن وسائر العلوم من الرياضيات والطبيعيات وغيرها، لا يضر شيء منها بالدين، بل يقويها كما انها تقويه،[٢٧] ولأن القرآن الكريم عنده موافق لما يتجدد من العلم الحق والتشريع العدل أوغير مخالف له. وصرح بأن اعجازه مما يعجز الزمان عن ابطال شيء منه، وقد ثبت هذا القرآن وحده، فهو كتاب مشتمل على كثير من أمور العالم الكونية والاجتماعية مرت العصور وتقلبت أحوال البشر في العلوم والأعمال، ولم يظهر خطأ قطعي في شيء منها، لهذا كانت سلامته من الخطأ ضربا من ضروب إعجازه للبشر، وإن لم يكن مما تحدى به الرسول ﷺ لأنه لم يكن ليظهر إلا من بعده، فادخر ليكون حجة على أهله. وزاد في بيانه أن القرآن يشتمل على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التى لم تكن معروفة في عصر نزوله، ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله في الخلق، وهذه الأنواع من المعارف كانت مجهولة للعرب أو لجميع البشر في الغالب، حتى أن المسلمين أنفسهم كانوا يتأولونها ويخرجونها عن ظواهرها لتوافق المعروف عندهم في كل عصر من ظواهر وتقاليد، أو من نظريات العلوم والفنون الباطلة.[٢٨]

وكان محمد عبده قد بين بمسلكه هذا أن المعترض لتفسير الآيات القرآنية الكونية ينبغي عليه أن يلم ولو بجانب صالح من الحقائق العلمية المتصلة بموضوع الآية المراد بتفسيرها، مع مراعاة الدقة الواجبة في التطبيق كما دل بذلك على زيادته وجهده الخاص في هذا الميدان. واظهر محمد عبده شواهد كثيرة واضحة في احتواء القرآن الكريم على العجائب العلمية المكتشفة في زمان بعد زمان، والآيات

[٢٧] محمد عمارة، *الأعمال الكاملة...*، جـ٣، ص:٨٣

[٢٨] رشيد رضا، *تفسير القرآن...*، جـ١، ص. ١٧٥

الجامعة لأدق قواعد العلوم الكونية والطبيعية وغيرها، مثل قوله تعالى: "وأرسلنا الرياح لواقع"،[٢٩] فأورد تعاليق على كثير من المفسرين حيث كانوا يقولون فيه: "إنه تشبيه لتأثير الرياح الباردة في السحاب بما يكون سببا لنزول المطر بتلقيح ذكور الحيوان لأناثه،" ولما اهتدى علماء أوربة إلى هذا وزعموا أنه ممالم يسبقوا إليه من العلم صرح بعض المطلعين على القرآن منهم بسبق العرب إليه. قال مستر أجنيري المستشرق الذي كان أستاذا للغة العربية في مدرسة اكسفورد في القرن الماضي: "إن أصحاب الإبل قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوروبة بثلاثة عشر قرنا. كان أهل النخيل من العرب كانوا يعرفون التلقيح إذا كانوا ينقلون بأيديهم اللقاح من طلع ذكور النخل إى إناثها، ولكنهم لم يكونوا يعلمون أن الرياح تفعل ذلك، ولم يفهم المفسرون هذا من الآية بل حملوها على المجاز. ثم بيّن قوله تعالى : "ومن كل شيء خلقنا زوجين"،[٣٠] أن هذه السنة الإلهية في النبات أصل لسنة التلقيح المذكورة آنفا فإن المراد بها أن الريح تنقل مادة اللقاح من الذكر إلى الأنثى كما تقدم.[٣١]

ومنه قوله تعالى : "والأرض مددناها وألفينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون".[٣٢] إن هذه الآية هي أكبر مثال للعجب بهذا التعبير (موزون) فإن علماء الكون الأخصائيين في علوم الكيمياء والنبات قد أثبتوا أن العناصير التى يتكون منها النبات مؤلوفة من مقادير معينة في كل نوع من أنواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها إلا بأدق الموازين المقدرة من أعشار الغرام والمليغرام، وكذلك نسبة بعضها إلى بعض في كل نبات. وقال محمد عبده : إن هذا التعبير بلفظ "كل" المضاف إلى لفظ "شيء" الذي هو أعم الألفاظ العربية الموصوف بالموزون- تحقيق لمسائل علمية فنية لم يكن شيء منها يخطر ببال بشر قبل هذه العصر، ولا يمكن بيان معناها بالتفصيل إلا بتصنيف كتاب مستقل.[٣٣]

وفي معنى دحو الأرض في قوله تعالى: " والأرض بعد ذلك دحاها"،[٣٤] قال محمد عبده: قد يكون المراد – والله أعلم- أنه دحاها عندما فتقها هي والسموات من المادة الدخانية التى كانت رتقا، وفيه دلالة أو إشارة أنها كرة أو كالكرة في الاستدارة، ولا يبعد أن يكون المراد بدحوها ودخرجتها حركتها بقدرته تعالى في فلكها " وكل في فلك يسبحون "[٣٥] وهذا لا ينافي ما قيل من أن معناه بسطها، أي وسعها ومد فيها وأنه

[٢٩] سورة الحجر: ٢٢

[٣٠] سورة الذريات: ٤٩

[٣١] رشيد رضا، *تفسير القرآن...*، جـ ١، ص. ١٧٦

[٣٢] سورة الحجر:١٩

[٣٣] سورة هود: ٧

[٣٤] سورة النازعات: ٣٠

[٣٥] سورة يس: ٤٠

سطحها، أي جعل لها سطحا واسعا يعيش عليه الناس وغيرهم، فمن جعل مسألة كرويتها وسطحها أمرين متعارضين يقول بكل منهما قوم يطعنون في الآخرين، فقد ضيقوا من اللغة والدين واسعا بقلة بضاعتهم فيها معا.[٣٦]

ولا يذهب محمد عبده بعيدا بهذا القول، فإن الله خاطب العرب في قرآنه بما تفهمه عقولهم وقت التنزيل ولا يجاوز في نفس الوقت الحقيقة العلمية التى تكشف عنها السنون والأزمان.[٣٧] وتنبه بأن من المفسرين من اهتم بهذا ومنهم من غفل، فصرف اللفظ عن حقيقته التى كشفت عنها العلوم الحديثة- إلى أنواع من المجازات تتمشى مع معارف عصره وأعرافه. ومن هنا، فلا يخفى علينا لو كان محمد عبده في دعوته إلى فكرة التفسير العلمي مثالا في معرضه الحديث عن اعجاز القرآن.

وبهذا البيان يبدو للباحث الفروق بين ما سار عليه صاحب المنهج الأدبي و محمد عبده في موقف كل منهما من فكرة التفسير العلمي. واحتج صاحب المنهج الأدبي بأن تدرج دلالة الألفاظ في حياتها هو أمر يجب ألا ننخدع به. وإنما على المتفهم لألفاظ القرآن أن يعود بها إلى الوراء في مرحلة طويلة إلى عصر النزول ليرى ما إذا كانت تدل في وقته على هذا المفهوم العلمي أم لا. وهذا اعتراض يقدمه صاحب المنهج الأدبي ويراه جوهريا. ومنع أن تحمل الكلمة في أي نص دلالة لا يعرفها عصره ولا مجتمعه حتى لواعتمدنا في ذلك على الدلالة المعجمية التى تتسع لعدة معان لا يقبلها النص.[٣٨]

كيف تصور المفسر الأدبي بأن ألفاظ اللغة – أية لغة – إنما هي قطع صماء لا تتسع دلالتها إلا لما وضعت له من المعانى الأولى. وعلاوة على هذا فالواقع، أن اللغة العربية إذا ما كانت هذه هي لغة القرآن الكريم وإعداد الله لها إعدادا خاصا لتحمل معجزة خاتم الرسالات، إذا كان هذا وذاك كان لنا أن نتصور مقدار ما في تصور المفسر الأدبي من قصور، فليس هناك ما يمنع وقد أصبحت اللغة العربية البشرية أشبه ما تكون بلغة إلهية فوق مستوى أية لغة بشرية- أن تحتمل ألفاظها معانى لم تظهر بعد، ادخرها الله لأهل العصور التالية، ليكون ما فيها من مفاهيم وحقائق إعجازا لهم أي إعجاز، ومن هذه المعانى والمفاهيم ما يحصل عليه المفسر العلمي في ضوء الحقائق العلمية اليقينية.

أما موقف محمد عبده من هذا الاتجاه، فإنه جوز التفسير للنص القرآني على أساس من القواعد العلمية الحديثة المكتشفة في بعض العلوم كعلم النفس والاجتماع، بل دعا صراحة إلى ذلك لأن معرفة الكون وسنن الله تعالى فيه، عنده مما يعين على فهم القرآن وسائر العلوم من الرياضيات والطبيعيات

[٣٦] رشيد رضا، *تفسير القرآن...*، جـ ١، ص. ٢٠٧

[٣٧] محمد عبده، *تفسير جزء عم*، ص. ٧٣

[٣٨] أمين الخولى، *مناهج التجديد...*، ص. ٢٩٣

وغيرها، لا يضر شيء منها بالدين، بل يقويها كما انها تقويه،[٣٩]، كما أن القرآن الكريم موافق لما يتجدد من العلم الحق والتشريع العدل أوغير مخالف له. فلا بد من أن يكون اعجازه مما يعجز الزمان عن ابطال شيء منه، إلا أن محمد عبده في دعوته إلى معرفة الحقائق العلمية المتصلة بموضوع الآية المراد بتفسيرها، قد تنبه على أن يكون هذا العمل مع مراعاة الدقة الواجبة في التطبيق، بأن لا يكون التفسير يتجاوز عن دلالة المعنى المراد في القرآن فيبتعد المفسرعن الاقحام في تفسير آيات القرآن الكريم. وكانت قاعدة السياق كفاية لمحمد عبده في تحليل معان ألفاظ القرآن من حيث استعمالاتها مع الاحتراس مما طرأ على معانيها من تطور واستعمالات.

و. محمد عبده وفكرة التمثيل

وقد استخذم محمد عبده فكرة التمثيل في التفسير فيما يكشف –فحسب- عن أهداف القرآن وغايته، وهي تربية الإنسان سلوكا واعتقادا، أو بمعنى أدق هداية الإنسان وإرشاده إلى طريق الخير والبر، وتوجيهه إلى الارتفاع بالحياة التى يعيشها الناس من حوله. ولنعرف كيف طبق محمد عبده فكرة التمثيل التى ربما تتميز عن بقية المفسرين، لا سيما حينما طبقها في تفسير القرآن على ضوء المبداء الأساسي في التفسير الذي سار عليه محمد عبده في تفسير القرآن الكريم. وعلى امكان الباحث أن نأخذ من بعض الأمثلة المتعلق بتفسيره الأدبي.

وقد اتخذ محمد عبده فكرة التمثيل أمثل أساليب البلاغة وأشدها تأثيرا في النفس وإقناعا للعقل، كما دلّ عليه النص (سورة العنكبوت: ٣٤). وقد بين هذا عبد القاهر الجرجاني في تأثير التمثيل سبابه وعلته أن له أسبابا وعللا، كل منها يقتضي أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل, ويشرف ويكمل، فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى أي شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكر، إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام.[٤٠]

وإذا أمعنا النظر إلى تفسير محمد عبده فبان لنا أنه استمد من بيان عبد القاهر الجرجاني في كتابه (أسرار البلاغة) لأجل وفاه حقه من البيان المقنع، فهاك رشيد رضا ما كتب في هذا المثل ثم بعده

[٣٩] محمد عمارة، *الأعمال الكاملة...*، جـ٣، ص:٨٣

[٤٠] عبد القاهر الجرجاني، *أسرار البلاغة...*، ص. ١٠٦

إجمالا ثم تفصيلا، مقتبسا معانيه من دروس أستاذه، محمد عبده، بيد أنه بجانب إلى استمداده برأي عبد القاهر الجرجاني أنه عندما فسر الآيات القرآنية قد يرتبط فكرة التمثيل بنزعة تصويرية بيانية كشفتا معا عن جوانب الجمال الفني العالية في التعبير القرآني، وأثمرتا – فيما بعد- ما أثر المكتبة القرآنية حديثا بأمتع وأعمق ما حظيت به من آثار في مجال التفسير القرآني، وكان محمد عبده يرى أن طريق الجمال الفني لتعبير القرآن استطاع به أن يؤثر في الناس ويكسب قلوبهم وعقولهم. ومثال ذلك تفسيره عن قصة آدم، لا سيما عندما سار على طريقة التمثيل في قصة آدم عليه السلام. وقد صرح فيها فكرة التمثيل تعنى في جوهرها أن القرآن الكريم كثيرا ما يصور المعانى بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب، وبأسلوب الحكاية، لما في ذلك من البيان والتأثير، فهو يدعو بها الأذهان إلى ما وراءها من المعانى، كقوله تعالى : " يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد "،[٤١] فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه، وإنما هو التمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا.[٤٢]

وقرر محمد عبده نزعة التصوير عند تعرضه لتفسير الآيات الكريمة " وعلم الآدم الأسماء كلها " حتى قوله تعالى : إنى أعلم غيب السموات والأرض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون"[٤٣]حول مراجعات وأقوال ومناظرات الملائكة بشأن آدم، وتعليمه الأسماء كلها وغير ذلك مما فوض السلف الأمر إلى الله تعالى في معرفة حقيقتها، حيث إنهم يكتفون بمعرفة فائدتها وحكمتها، ثم قال محمد عبده:"وأما الخلف فيلجئون إلى التأويل وأمثال طرقه في هذا المقام التمثيل، وقد مضت سنة الله في كتابه بأن يبرز لنا الأشياء المعنوية في قوالب العبارة اللفظية، ويجلى لنا المعارف المعقولة بالصور تقريبا للأفهام وتسهيلا للإعلام، ومن ذلك أنه عرفنا بهذه القصة قيمة أنفسنا، وما أودعته فطرتنا، مما نمتاز به على غيرنا من المخلوقات، فعلينا أن نجتهد في تكميل أنفسنا بالعلوم التى خلقنا مستعدين لها من دون الملائكة بفضلها ومعنى سجودهم لأصلنا.[٤٤]

وصرح محمد عبده بأن أمر الخلقة وكيفية التكوين في تلك الأية من الشؤون الإلهية التى يعز الوقوف عليها كما هي, وقد قص علينا في هذه الآيأت خبرة النشأة الإنسانية على نحو ما يؤثر عن أهل الكتاب من قبلنا، فأخذ محمد عبده يبينها بنزعته التصويرية البيانية وقال: إن الله مثل لنا المعانى في صور محسوسة، وأبرز لنا الحكم والأسرار بأسلوب المناظرة والحوار، كما هي سنته في مخاطبة الخلق، وبيان

[٤١] سورة ق: ٣٠

[٤٢]. رشيد رضا، *تفسير القرآن...*، جـ ١، ص. ٢٣٢

[٤٣] سورة البقرة: ٣١-٣٣

[٤٤] رشيد رضا، *تفسير القرآن...*، جـ١, ص. ٢١٩-٢٢٠

الحق. ومن هنا، ذهب إلى أن هذه الآيات من المتشابهات التى لا يمكن حملها على ظاهرها، لأنه بحسب قانون التخاطب إما استشارة، وذلك محال على الله تعالى، واما إخباره منه سبحانه وتعالى للملائكة واعتراض منهم ومحاجة وجدال، وذلك لا يليق بالله تعالى أيضا ولا بملائكة، ولا يجامع ما جاء به الدين من وصف الملائكة،[٤٥] لكونهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)[٤٦] بناء على هذا، قال محمد عبده:"إن كل قول أو فعل ينسب إلى من لا يصدر عنه في المعروف فنسبته إليه على طريق التمثيل إلا أن يكون هناك سبب يسوغ النسبة في عرف الخطاب".[٤٧]

وذهب محمد عبده في تقرير التمثيل في قصة آدم إلى أن فيها صور عبر وهي : إن أخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التى بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود في هذه الأرض – وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطي استعدادا في العلم والعمل لا حد لهما في تصوير لما في استعداد الإنسان لذلك وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافته في الأرض- وتعليم آدم الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم في الجواب تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعلوالم محدودا لا يتعدى وظيفته- وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها في ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك- وإباء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر وإبطال داعية خواطر السوء التى هي مثار التنازع والتخاصم، والتعدي والإفساد في الأرض- ولولا ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون فيه أفراده كالملائكة بل أعظم، أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشري.[٤٨] ومن ذلك كله خير الدليل على أن محمد عبده قد ارتبط فكرة التمثيل بنزعة تصورية بيانية ولم يكن من المفسرين الذين يفسرون هذه الآيات على طريقة التمثيل إلا تفسير ابن كثير. هذا كما أشار إليه رشيد رضا في بيان أن قصة آدم عند محمد عبده هو أمر التكوين.

ونكتفى هنا بما قاله محمد عبده نفسه – بعد نقل طريقة السلف في التنزيه والتفويض في المتشابه وطرق الخلف في التأويل : - وأنا على طريقة السلف في وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بالله تعالى وصفاته وعالم الغيب، وأننا نسير في فهم الآيات على كلتا الطريقتين ، لأنه لا بد للكلام من فائدة يحمل

[٤٥] رشيد رضا، *تفسير القرآن...*، جـ١، ص. ٢٠٩

[٤٦] سورة التحريم: ٦

[٤٧] محمد عبده، *تفسير جزء عم*،... ص. ٤٠

[٤٨] رشيد رضا، *تفسير القرآن...*، جـ١، ص. ٢٣٢-٢٣٣

عليها، لأن الله عز وجل لم يخاطب بما لا نستفيد منه معنى[٤٩] فهذا هو موقف محمد عبده من موازنة الاعتماد على البرهان النقلي والبرهان العقلي في مسائل العقيدة، فكانت هي الأصل المحكم في الاعتقاد الذي يجب أن يرد إليه غيره، وهو التنزيه. فإذا جاء في نصوص الكتاب أو السنة شيء ينافي ظاهرة التنزيه فللمسلمين طريقتان: إحداهما؛ طريقة السلف وهي التنزيه الذي أيد بالعقل فيه النقل كقوله تعالى (ليس كمثله شيء)، [٥٠] وتفويض الأمر إلى الله تعالى في حقيقة ذلك، مع العلم بأن الله يعلمنا بمضون كلامه ما نستفيد به في أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا، ويأتينا في ذلك بما يقرب المعانى من عقولنا ويصورها لمخيلاتنا. والثانية؛ طريقة الخلف وهي التأويل، ويقولون إن قواعد الدين الإسلامي وضعت على أساس العقل فلا يخرج شيء منها عن المعقول فإذا جزم العقل بشيء وورد في النقل خلافه يكون الحكم العقلي القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ولا بد له من معنى موافق يحمل عليه، فينبغي طلبه بالتأويل.[٥١]

وذلك لأن محمد عبده لقد آمن بأن الوحي والعقل كليهما أثر من آثار الله في الوجود، كما أن كليهما مصدر هداية، ويهدف إلى تحديد الطريق المستقيم للإنسان في الحياة، فمن الضروري انسجامهما وتعاونهما في تحقيق رسالتهما، ومن هنا، كان استخدام محمد عبده للعقل – لا كما استخدمه المعتزلة في تأييد عقائدهم ومذهبهم – بل في تقريب الإسلام وأفكاره من العلماء المحدثين الذين لا يؤمنون إلا بما تقبله عقولهم وما تسلم به مناهجهم.[٥٢]

ويتضح من تتبع آثار محمد عبده التفسيرية أنه فيما ذهب إليه من التحليل البياني فيما كان موضوع خلاف من الآيات والتجائه في اقناع غير المؤمنين بحقائق الغيب والدين. – إلى التوسع في المجاز مجاوزا حقيقة اللفظ – لم يكن يجبر سامعه أو قارئه على أخذ رأي واحد لا ثانى له وباستطاعة المرء أن يتلمس ذلك واضحا فيما ساقه محمد عبده من آراء خاصة حول مفهوم الملائكة اتبعها بأقوال غيره من المفسرين.[٥٣]

ومن هنا، فالباحث لا يتفق مع من يرى أن لمحمد عبده نزعة اعتزالية عقدية. بل إن محاولته للكشف للأمور الغيبية بفكرة التمثيل في تفسيره خير الدليل على نزعته العقلية في تأويل النصوص

---

[٤٩] رشيد رضا، *تفسير القرآن...*، جـ١، ص.٢١٠

[٥٠] سورة الشورى: ١١

[٥١] رشيد رضا، *تفسير القرآن...*، جـ ١،ص، ٢٠٩-٢١٠

[٥٢] رشيد رضا، *تفسير القرآن...*، جـ١، ص. ٢٢٦-٢٢٧

[٥٣] رشيد رضا، *تفسير القرآن...*،جـ ١، ص. ٢٠٩-٢٢٧

القرآنية وتأثره بالبلاغيين القدامى وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني والزمخشري، فإن مثل هذا الزعم لا يجد له سندا ولا أساسا، فضلا عن أنه يناقض تحذير محمد عبده من الدخول في فهم القرآن بعد اعتناق عقيدة سابقة، كما يناقض مسلكه الذي قرره محمد عبده من التفويض – التفويض فحسب- في أمور الغيب وغيرها من الآيات المتشابهات، ولا يعدو الأمر في تصورنا أكثر من اشتراك محمد عبده مع المعتزلة في الإعلاء من شأن العقل واستخدامه بحرية في التأويل والتمثيل، مع اختلافهم في الغاية والهدف من هذه الحرية العقلية.

ز. نتيجة البحث

يتوصل الباحث إلى نتيجة هذا البحث, أن اتجاه محمد عبده الأدبي في تفسير الآيات القرآنية كان يسير على الاتجاه الأدبي في التفسير الحديث. ويبرهن ذلك باعتماده على الدراسة ما في النص عند ما قام بتحليل معان مفردات القرآن متمسكا بدرس اللغة ألفاظا وتاريخا وما تعرضت له من تطور في دلالاتها، ودرس البيان العربي من مصادره الأولى، وعلى الدراسة ما حول القرآن.

واتخذ محمد عبده الفكرة التى يحددها السياق قاعدة في فهم معانى مفردات القرآن. واتسع بها في التفسير مع مراعاة الدقة الواجبة في التطبيق، بأن لا يكون التفسير متجاوزا واقحاما عن دلالة المعنى المراد في القرآن نفسه. ودعا صراحة إلى معرفة الحقائق العلمية المتصلة بموضوع الآية المراد بتفسيرها،لأنها لا يضر شيء منها بالدين، بل يقويها كما انها تقويه، بل كان عنده برهانا على اعجازه الدائم مما يعجز الزمان عن ابطال شيء منه لما كان فيه من مطابقة خطابه بظاهره ونصه أو دلالته الأولى لمقتضى حالهم وقت نزول القرآن وما يعرفون، وبما احتواه باطن خطابه أو بدلالاته الثانوية لمن بعدهم مدى العصور. واستخدم محمد عبده فكرة التمثيل في التفسير فيما يكشف عن أهداف القرآن وغايته، وهي تربية الإنسان سلوكا واعتقادا، وهي عنده أمثل أساليب البلاغة وأشدها تأثيرا في النفس وإقناعا للعقل لا سيما عندما طبقها في الكشف للأمور الغيبية حتى وصل إلى نزعته عقلية في تأويل النصوص القرآنية المتميزة عن المعتزلة.

المراجع

إبراهيم، محمد أبو الفضل ، *البرهان في علوم القرآن*، القاهرة: مكتبة دار التراث، ١٩٨٤م، ط ٣.

البقاعي، أبو بكر، *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*، السمرقندي: دار العلوم.

الخالدي، الصلاح عبد الفتاح، *مع قصص السابقين في القرآن*، دمشق: دار القلم، ١٩٩٦ م.

الديلمي الهمذاني، أبو شجاع شيرويه بن شهردار، *الفردوس بمأثور الخطاب*، تحقيق السعيد بن بسوني زغلول، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦ م، ط ١، ج ٣.

رضا، محمد رشيد، *تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار*، (بيروت: دار المعرفة)، ج ٤.

وهبة الزحيلي، *التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج*، بيروت: دار الفكر، ١٩٩١م، ط ١.

Khoiru an-Nahdiyyin, *Metode Tafsir Sastra*, Yogyakarta: Adab Press, 2004.

M. Nurkholis Setiawan, *Al-Qur'an Kitab Sastra Terbesar,* Yogyakarta: eLSAQ Press, 2005.